خلوة الشيخ خلف الله

ناصر محمد عثمان ❖

حسن عوض الكريم علي ❖❖

المُستخلص:

تتناول هذه الدراسة خلوة الشيخ خلف اللّه احمد بمدينة شندي، في الفترة من العام ١٩٢٥م وحتى العام ١٩٥٥م، وهي تهدف إلى إلقاء الضوء على الخلوة وتاريخها، وعرض لمحة عن الشيخ خلف اللّه والدور الذي لعبه في ميدان التعليم في المدينة، وإبراز دور الخلوة في مواجهة ندرة المؤسسات التعليمية في تلك الفترة ومدى نجاحها فيه.

بُنيت الدراسة على المنهج التاريخي واعتمدت في وسائلها على مجموعة من الوثائق و المراجع ذات الصلة، وبعض المُقابلات الشخصية .وانتهت الدراسة إلى جملة من النتائج كان أهمها أن الخلوة كانت ثاني أكبر مؤسسة تعليمية بمدينة شندي من حيث أعداد المنتسبين إليها بعد المدرسة الأولية، وأنها شكلت مساراً تعليمياً ثانياً للذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدرسة الأولية، أو الذين تجاوزت أعمارهم السن المحددة للالتحاق بالتعليم الأولى . كذلك وفرت الخلوة قدراً من التعليم قبل المدرسي للذين كانت تقل أعمارهم عن السن المحددة للالتحاق بالتعليم الأولى.

Abstract:

This paper handles the Khalwa of Sheikh Khalafallah Ahmed of Shendi in the period 1925—1955.

The study traces the history of the Khalwa and the educational role played by Sheikh Khalafallah in Shendi. It attempts to highlight the Khalwa as an educational institute in a time of scarcity of such institutes.

The study adopted the historical methodology and the manuscripts, references and personal interviews as mechanism.

* استاذ مساعد – كلية الآداب – جامعة شندي

** استاذ مشارك - كلية الآداب – جامعة شندي

The results of the study: the Khalwa is second to the elementary school in the in-taking capacity. To those who missed formal education, the Khalwa is an educational alternative. Besides, it is a spacious vehicle for both the over-aged and the under-aged.

مقدمة

أدى اندلاع ثورة ١٩٢٤م التي أشعل جذوتها الخريجون إلى أن تلتفت حكومة السودان إلى خطورة مخرجات التعليم على وجودها الاستعماري، وأصبح التعليم في نظرها سلاحاً ذو حدين فهو من جانب أداة لتحقيق الأهداف التي رسمتها له، ومن جانب آخر فهو وسيلة للاستنارة والتطلع والطموح ونشر الوعي، لذلك شرعت الحكومة بعد ثورة ١٩٢٤ في الحد من توسع التعليم الذي خرج- في رأيها- عن المسار الذي رسم له وأدارت ظهرها له، وتبخرت فيها روح الحماسة لنشره، وكان من نتائج هذه السياسة أن أصيب النظام التعليمي الحديث في الفترة من ١٩٢٤م وحتى عام ١٩٣٣م بالجمود، وانفتح الباب على مصراعيه أمام الخلاوي لزيادة أعدادها[١]

حتى مطلع الربع الأول من القرن العشرين، كانت الخلاوي القرآنية هي الجهاز التعليمي الوطني الأكثر عدداً والأوسع انتشاراً في السودان، غير أنه و مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين، بدأت مصلحة المعارف تتدخل في نظام الخلاوي القرآنية وأظهرت قدراً كبيراً من الاهتمام ببيئة عملها، فظهر ما يعرف بالخلاوي النظامية أو الخلاوى المعانة [٢]. والخلاوي النظامية هي في الأصل خلاوي قرآنية كانت تهتم بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة وتدريس بعض العلوم الدينية الأخرى تم إدخال بعض التعديلات على مناهجها لتواكب مناهج الدراسة بالمدارس النظامية، وركزت أهدافها على تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحفظ شيء من القرآن الكريم، مع اهتمام خاص بالمبادئ الأولية للصحة والنظافة [٣]، حتى تكون على مسافة معقولة من النظام التعليمي القائم في البلاد آنذاك، . وفي المقابل التزمت مصلحة المعارف بتقديم إعانة مالية شهرية للخلاوي في شكل مرتبات للفقهاء ومساعديهم الذين يقومون بالتدريس فيها، ومن هنا جاءت تسمية هذه الخلاوي في بعض الأحيان باسم الخلاوي المعانة. ولتحقيق تلك الأهداف أنشأت مصلحة المعارف قسماً خاصا لتفتيش

الخلاوي، يكون مسئولاً لديها ولدى السلطة المحلية التي تتبع لها الخلاوي أو الخلوة المعنية، وذلك لمساعدة سلطات التعليم بالمديريات في تتبع مستويات تلك الخلاوي والمساهمة في رفع مستوى التدريس فيها[٤]. وعلى هذا يمكننا القول أن الخلوة النظامية كانت تعد مدرسة مصغرة يتعلم فيها التلاميذ الحساب والقراءة والكتابة والقرآن الكريم.[٥]

الشيخ خلف الله أحمد نسبه ونشأته وتعليمه:

ينتمي الشيخ خلف الله إلى جماعة العوضية، وهم فرع من قبيلة الجعليين[٦] المعروفة بتعدد بطونها وبانتشارها الواسع في مناطق السودان المختلفة، والده هو الشيخ احمد بشير ود توير من أعيان منطقة الجوير غرب شندي، التي اشتهرت بخلاويها القرآنية العريقة والمتميزة. ولد الشيخ خلف الله بقرية الجوير[٧] في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في عام ١٨٨٣ تقريباً،[٨] والبلاد تتهيأ لاستقبال عهد جديد يتطلع فيه أبناؤها لحكم أنفسهم، بعد ستة عقود ونيف من تسلط وصلف الحكم التركي المصري، وفي هذا العام الذي ولد فيه الشيخ خلف الله، كان الصلف الاستعماري يتهاوى على رمال سهل شيكان في كردفان، ويتعالى نجم المهدية الذي لمع في سماء السودان .

في هذه الحقبة التاريخية المفعمة بالوطنية والمد الثوري ،وفي هذه البيئة الريفية المشبعة بالعلم ونور القرآن، نشأ وترعرع الشيخ خلف الله في بيت شرف ودين، وبعد سنوات من مولده ألحقه والدة بخلوة الفكي الحاج جابر بالجوير، فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ جابر، الذي كان يعد من الأعلام في ميدان التعليم الديني في المنطقة الواقعة غرب شندي. وبعد أن أتم الشيخ خلف الله حفظ القرآن الكريم وأدرك سن الشباب، ارتحل إلى أم درمان حيث عمل في سوقها ردحا من الزمن بتجارة العناقريب،[٩] وعرف بين أقرانه التجار بالصدق والرزانة والتروي، وقد كان ذلك بعد انكسار الدولة المهدية بعدة سنوات .

بدأت تتجلى ملامح شخصية الشيخ خلف الله القوية، وهمته العالية الشغوفة بالعلم ومدارسته منذ شبابه الباكر، فكرس جهده وهو في هذا الطور من عمره في السعي وراء طلب العلم والاستزادة منه أين ما وجد، غير آبه باهتمامات من هم في سنة من الشباب، أو بتجارته التي كانت تدر عليه ربحاً مقدراً، كان من الممكن أن تهيئ له حياة مرفهة في مدينة مترفة، فاعرض عن الدنيا وأقبل على العلم بشهية مفتوحة، وجعل من ارض السودان الواسعة داراً لهجرته في طلب العلم في العقد الأول من القرن العشرين هاجر الشيخ خلف الله إلى منطقة الشايقية، التي اشتهرت بمراكزها العلمية الشهيرة، وهناك اتسعت ثقافته الدينية ومهارته اللغوية، بعد أن درس السيرة النبوية وعلوم الفقه على يد أعلام شيوخ الشايقية في القرير والبر كل.[١٠] ومن ثم انتقل بعد ذلك إلى دنقلا لدراسة علوم القرآن فبرع فيها، ثم ارتحل بعد ذلك إلى خلوة الشيخ العبيد ود بدر بأم ضواً بان طالباً المزيد من فنون العلم والمعرفة . وهكذا فقد ظل الشيخ خلف الله وفي سبيل إرواء ظمأه للعلم وإرضاء ذاته الطموحة ومسايرة همته العالية، ينتقل من منطقة إلى أخرى، ومن شيخ إلى آخر متكبداً عناء الهجرة والسفر، ومجالسة العلماء، حتى استقر به المقام أخيراً في مدينة شندي في الربع الأخير من العقد الثاني من القرن العشرين بعد أن تبحر في العلم و بلغ درجة العالِمية .

التحق الشيخ خلف الله بسلك التدريس مدرساً للتربية الإسلامية بمدرسة شندي الأولية في العام ١٩١٩[١١]. وفي عام ١٩٢٤ قبض علية مع مجموعة من المواطنين الذين تظاهروا في مدينة شندي[١٢] تأييداً لثوار ثورة ١٩٢٤، و بعد أن أفرج عنه فصل من سلك التدريس في نفس العام، بسبب انغماسه في العمل السياسي المناوئ للاستعمار. ولما كان قلب الشيخ خلف الله قد تعلق بمهنة التعليم و بمدينة شندي معاً، لم يفكر الشيخ بالعودة إلى أم درمان لمزاولة التجارة كما كان في شبابه، وإنما انكب وبهمة عالية على تعليم أبناء المدينة في الخلوة النظامية التي أسست فيها في نفس العام، ويبدو أنه ومن خلال قيامه بهذا العمل كان يشعر بأنه يساهم في تطوير و رفعة المجتمع الذي

أحس بالانتماء إليه في مدينة شندي، وهو القادم من الجوير التي لا سبيل فيها لمثل هذا العمل مع وجود خلوة الشيخ الحاج جابر فيها .

فيما يتعلق بسيرته المهنية فإن المصادر الرسمية لا تذكر عنه الكثير ،ولكن أخباره القليلة المتناثرة هنا وهناك تؤكد أنة كان عالماً محنكاً ومجرباً، ظهرت مواهبه مبكراً في ميدان التدريس فأبدع في عملة حتى صار من أعلام التعليم في مدينة شندي في تلك الحقبة التاريخية، وذاع اسمه في آفاق عصره وتربت على يديه أجيال من أبناء شندي . أما المصادر المحلية فهي وعلى قلتها تعطينا وصفاً ظاهراً لسلوكه الوطني المحمود ومكانته السامية في المجتمع، الذي كان فيه الشيخ رائداً في مجال التعليم وخدمة المجتمع، فهو الذي أسس مع مجموعة من المواطنين الخيرين بشندي خلوة نظامية كان قيماً عليها مع من اختارهم لمساعدته، يقوم فيها بتدريس القرآن الكريم في الصباح للصغار، والسيرة وعلوم الحديث للكبار بين صلاتي المغرب والعشاء في حلقة المسجد الذي أصبح فيما بعد مقراً لخلوته النظامية .

ظل الشيخ خلف الله ملتزماً برسالته نحو المجتمع الذي انتمي إليه، والتي اتسعت لتشمل إمامة المصلين بمسجد المدينة الكبير- الذي أصبح الشيخ خلف الله إماماً له بعد وفاة الشيخ احمد سمساعة - إلى جانب التدريس في خلوته النظامية، التي بدأت الحاجة إليها كمؤسسة تعليمية مناظرة للمدرسة الأولية، تقل مع ازدياد انتشار مؤسسات التعليم النظامي في مدينة شندي، لاسيما بعد قيام مدرسة شندي الجنوبية الأولية في عام ١٩٤٩، و معهد شندي العلمي في عام ١٩٥٤. وقد ظل الشيخ الجليل وفياً لرسالته و مجتمعه إلى أن التحق بالرفيق الأعلى في نهاية العقد السابع من القرن العشرين، في العام ١٩٦٧ تقريباً[١٣]، بعد حياة مليئة بجلائل الأعمال، وعن عمر ناهز الخمسة وثمانين عاماً ظل خلالها مخلصاً لدينه ووطنه، ووفياً لمجتمعه الذي أحبه وكرس له حياته .

خلوة الشيخ خلف الله النشأة والموقع:

تأسست خلوة الشيخ خلف الله بمدينة شندي في شهر فبراير من العام ١٩٢٥، [١٤] وقد ارتبط اسمها منذ البداية بالشيخ خلف الله الذي ارتبط هو الآخر بتأسيسها، حيث تجمع المصادر المحلية على أن اعتقال الشيخ خلف الله احمد وفصله من سلك التدريس، بمدرسة شندي الأولية في أواخر العام ١٩٢٤ بسبب تأييده لثورة ١٩٢٤، كان الدافع الأساسي وراء تدافع أعيان ومواطني مدينة شندي لتشييد خلوة نموذجية بالمدينة، بغرض تعليم أبنائهم الذين كانت تقل حظوظهم كثيراً في الالتحاق بالمدرسة الأولية الوحيدة في المدينة، القراءة والكتابة و مبادئ الحساب والقرآن الكريم، وقد اجتمعت كلمة أعيان المدينة على أن يسند أمر هذه الخلوة للشيخ خلف الله أحمد[١٥] الذي وجد في هذه الخطوة ،التي قصد منها إظهار بعض الامتنان له على موقفه الوطني من ثورة ١٩٢٤، والاستفادة من خبرته في مجال التدريس، غاية نبيلة صادفت هوىً في نفسه وأبدي ارتياحاً كبيراً لهذا الاختيار الذي كان يلائم مزاجه، وأقبل عليه بهمةٍ عالية .

أنشئت الخلوة في طورها الأول بالقرب من مدرسة البنين الأولية، في المنطقة الواقعة إلى الشرق من مدرسة شندي الشمالية بنات الحالية، ووضعت الخلوة في البداية في مبانٍ مؤقتة في هذا الموقع، إلى أن تم تشييد مبانيها الثابتة بالجهد الشعبي بعد عشر سنوات من تأسيسها، وقد ذكر ثيوبولد مفتش التعليم بالمديرية الشمالية والذي زار الخلوة في نهاية العام ١٩٣٨، أن مباني الخلوة قد شيدت بالعون الذاتي في العام ١٩٣٤، وهي تتكون من غرفتين مربعتين قطر الواحدة منها ٤٥٠ سم، وكل غرفة بها ثلاث نوافذ، وهي جيدة التهوية مسقوفة بالحصير المغطى بالتراب، وأرضيتها مغطاة بمفرشة من السعف(البرش)[١٦] وقد ظلت الخلوة طيلة هذا الطور تعرف باسم خلوة الشيخ خلف الله أو خلوة شندي النظامية.

أما الطور الثاني والأخير من أطوار الخلوة فقد بدأ عندما رُحلت الخلوة من مقرها الأول، بغرض إفساح المجال أمام إعادة فتح مدرسة البنات الأولية بالمدينة، عن طريق ضم المساحة التي كانت تشغلها الخلوة إلى قطعة الأرض الملاصقة لها، والتي خطط

لإعادة فتح مدرسة البنات الأولية فيها[١٧] على أن ينتقل الشيخ خلف الله بتلاميذه إلى مسجد شندي العتيق، الذي سيصبح المقر الثاني والأخير لهذه الخلوة . أما متى حدث هذا الانتقال فمن المرجح أن يكون قد حدث في العام ١٩٥٠ او١٩٥١، ويدعم هذا الرأي أن مدرسة البنات الأولية قد اكتملت مبانيها في عام١٩٥٢ في الموقع الذي كانت تحتله الخلوة في طورها الأول، وأن الخلوة في عام ١٩٥٤ كانت مستقرة تماماً بمسجد شندي الكبير حينما زارها حسن أبو زيد، مساعد مفتش التعليم بالمديرية الشمالية آنذاك[١٨].. وعلى الرغم من أن هذا الانتقال قد كان ضرورة أملتها خطط إعادة فتح مدرسة البنات الأولية، إلا أن السماح للخلوة بالانتقال إلى مسجد شندي الكبير كان تعبيراً واضحاً عن الخصوصية التي تمتعت بها الخلوة لدى مواطني مدينة شندي وأعيانها، كما أن هذه الخطوة كانت أيضاً تشير وبوضوح إلى أن الشيخ خلف الله وبتنازله عن مقر خلوته طوعا لصالح مدرسة البنات الأولية قد اظهر قدرا كبيرا من الاهتمام بالتعليم عامة وتعليم البنات على وجه الخصوص في مدينة شندي. كما تشير كذلك واقعة الانتقال هذه إلى أن الشيخ خلف الله ربما كان قد أصبح في ذلك الوقت إماماً لمسجد شندي الكبير، الذي أصبحت خلوته تحمل اسمه، حيث أطلق عليها في هذا الطور خلوة الجامع[١٩] حيث كان الشيخ يمارس نشاطه العلمي فيها صباحاً ومساءً كل أيام الأسبوع .

تاريخياً لم تكن خلوة الشيخ خلف الله هي الخلوة النظامية الأولى في مدينة شندي كما يتبادر للذهن، والراجح أنها الخلوة الثانية في المدينة التي عرفت الخلاوي النظامية لأول مرة في شهر فبراير من العام ١٩٢٤م، أي قبيل اندلاع ثورة ١٩٢٤م التي مهدت الطريق لظهور سياسة حكومية جديدة في مجال التعليم ،قوامها التضييق على المتعلمين والحد من توسع المؤسسات التعليمية الحديثة في مدن البلاد المختلفة،[٢٠] وقد كان من شأن هذه السياسة أن ساعدت على انتشار الخلاوي النظامية في البلاد، فحظيت مدينة شندي بقدر لا بأس به من تلك الخلاوي . والجدول أدناه يبين تاريخ ظهور الخلاوي النظامية في مدينة شندي وضواحيها حسب التدرج الجغرافي من الشمال إلى الجنوب.

جدول رقم (١) :-

الخلاوى النظامية في مدينة شندي وضواحيها

م	اسم الخلوة	تاريخ التأسيس أو الانضمام للمعارف
١	التراجمة	١٩٢٧م يناير
٢	المسيكتاب شمال	١٩٢٥م يوليو
٣	شندي (١) الشيخ خلف الله	١٩٢٥م فبراير
٤	شندي (٢)	١٩٢٧م يناير
٥	مويس	١٩٢٤م فبراير

المصدر: كمال الدين عباس، مفتش تعليم بربر، وأحمد محمد إبراهيم، مفتش التعليم الأهلي، عطبرة، المديرية الشمالية ٨٥/١٥/١، ونيوبولد مفتش التعليم بالمديرية الشمالية، المديرية الشمالية ٨٠/١٤/١ .

إذا استثنينا خلوة الشيخ خلف الله من الخلاوي الموضحة في الجدول أعلاه، سنجد أنها في الواقع هي نفس المراكز العلمية التي انتظمت في مدينة شندي وضواحيها منذ القرن السابع عشر الميلادي، وامتدت إليها يد مصلحة المعارف بالإصلاح في الربع الثاني من القرن العشرين فحولتها إلى خلاوي نظامية، وفي هذا الصدد فإن خلوة مويس الكائنة بقرية مويس جنوب شندي تعتبر أول مركز علمي بالضاحية الغربية لمدينة شندي ، يتم تحويله إلى خلوة نظامية في منطقة شندي، وفقاً لمتطلبات ومعايير مصلحة المعارف ،التي كانت تشدد في ملاءمة مباني المركز لصحة الصبيان، وكثافة إقبالهم على الدراسة فيه، بالإضافة إلى وجود فقيه مؤهل يقوم بعملية التدريس . وقد كان ذلك الحدث في شهر فبراير من العام ١٩٢٤م . ثم أعقبه في يوليو ١٩٢٥م تحويل خلوة الشيخ المزمل عبد الباقي بقرية المسيكتاب شمال شندي إلى خلوة نظامية . أما خلوة الشيخ خلف الله بشندي فإنها تعتبر الخلوة الوحيدة من جملة الخلاوي المذكورة في الجدول أعلاه التي أُسست كخلوة نظامية منذ البداية .

الخلاوي النظامية في مدينة شندي وضواحيها :-

كانت خلاوي شندي تخضع لتفتيش مصلحة المعارف السنوي، الذي كان يتم على مستوى مفتش التعليم بالمديرية الشمالية في نهاية العام، وعلى مستوى مفتشي المعارف المحليين بالمديرية الشمالية في منتصف العام، هذا وكانت مصلحة المعارف قد خصصت اثنين من المفتشين المحليين لخلاوي المديرية الشمالية للإشراف على عملها وتفتيشها مرة كل ستة أشهر في السنة عن طريق تنظيم جولات دورية عليها في كل من شهري إبريل ونوفمبر من كل عام[٢١]، واستمر هذا النظام على هذا النمط إلى أن تم تغييره في عام ١٩٣٥م حيث تم تقليص عدد مرات التفتيش لتصبح مرة في السنة تكون في شهر ابريل من كل عام .

بالنسبة لمصلحة المعارف فقد كان هذا التفتيش يعتبر أمراً ضرورياً لقياس مستوى تلك الخلاوي والاطمئنان على بيئتها، و لتحديد مستوى الدعم الذي تستحقه و الحرص على عدم تبديد الأموال المخصصة لدعمها، ولضمان تحقيق الأهداف التي من أجلها خصص هذا الدعم عبر المتابعة والإشراف والتفتيش الدوري، والإغراء بالزيادة والترهيب بالحرمان، وحث المجتمعات المحلية على دعم الخلاوي وتشييد مبانيها بطريقة ملائمة وصحية ،والنظر في أمر تدريب فقهائها عن طريق تنظيم الدورات التجديدية والتنشيطية لفقهاء الخلاوي في عواصم المديريات.[٢٢]

الخلاوي النظامية بمدينة شندي بما فيها خلوة الشيخ خلف الله كانت تتلقى إعانة مالية من مصلحة المعارف وهي في الواقع عبارة عن دعم مالي شهري لا يتجاوز في أغلب الأحيان المائتي قرش (اثنان جنيه)، يقدم لكل خلوة نظامية كراتب للفقيه الذي يقوم بالتدريس فيها حسب المنهج المحدد والمساعدة إن وجد، ، وقد كانت هذه الإعانة المقدمة من المعارف، هي المسوغ الذي استندت عليه المصلحة للتدخل في شئون تلك الخلاوي، عن طريق الإشراف والمتابعة والتفتيش الدوري[٢٣]، وقد تصل سلطة المعارف ومفتشوها في هذا الشأن إلى إيقاف الإعانة، أو تقليص قيمتها، أو إلغائها. وذلك حسب المستوى العلمي الذي تتمتع به الخلوة . لذلك كثيراً ما كانت توصي تقارير التفتيش

الدوري بإخضاع بعض الفقهاء لدورات تجديدية أو تنشيطية في شندي أو الدامر، كتلك الدورة التي خضع لها الشيخ خلف الله بالدامر في عام ١٩٢٥[٢٤]، لتدريبه على الأساليب الحديثة لتدريس الحساب. وعلى هذا فقد كان استمرار الإعانة المقدمة للخلوة أو زيادتها، أو حتى استمرار الخلوة كمؤسسة تعليمية معترف بها، رهيناً بالمستوى المعرفي التي يتمتع به فقيهها، وبمقدرته على القيام بالوجبات الملقاة على عاتقه.

مكانة خلوه الشيخ خلف الله بين المؤسسات التعليمية في مدينة شندي:

تقارير مفتشي التعليم الأهلي بالمديرية الشمالية، في الفترة من ١٩٢٦ وحتى ١٩٣٨ ظلت تشير وباستمرار إلى أن خلوة الشيخ خلف الله، قد احتلت موقعاً متقدماً بين المؤسسات التعليمية الحديثة والتقليدية بمدينة شندي، وذلك من حيث المستوى العلمي وأعداد الصبيان المقيدين للدراسة فيها، وهذا يقودنا بالضرورة للاستنتاج بأن خلوة الشيخ خلف الله و نتيجة للمستوى العلمي المتميز الذي ظلت تتمتع به طيلة هذه الفترة، كانت تحظى بإقبال كبير من مواطني المدينة الذين لم تكن المدرسة الأولية الوحيدة فيها تتسع لأبنائهم. والجدول التالي يبين أعداد الصبيان المقيدين بالخلاوي النظامية بمدينة شندي أثناء زيارات مفتشي مصلحة المعارف في العام ١٩٢٦ والأعوام الممتدة بين العام ١٩٣٢ والعام ١٩٣٨.

جدول رقم (٢)

أعداد الصبيان المقيدين بالخلاوي النظامية بمدينة شندي وضواحيها حسب تقارير مفتشي مصلحة المعارف في العام ١٩٢٦ والأعوام الممتدة بين العام ١٩٣٢ والعام ١٩٣٨

م	اسم الخلوة	أعداد الطلاب في العام ١٩٢٦	أعداد الطلاب في ديسمبر ١٩٣٢	أعداد الطلاب في نوفمبر ١٩٣٣	أعداد الطلاب في إبريل ١٩٣٤	أعداد الطلاب في نوفمبر ١٩٣٤	أعداد الطلاب في إبريل ١٩٣٥	أعداد الطلاب في إبريل ١٩٣٦	أعداد الطلاب في إبريل ١٩٣٧	أعداد الطلاب في نوفمبر ١٩٣٨	المجموع
١	خلوة التراجمة	٣٦	٣٢	٢٥	٣٠	٣٧	٤٠	٣٣	٢٨	–	٢٦١
٢	خلوة المسيكتاب	٣٠	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٠
٣	خلوة شندي٢	٣٥	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٥
٤	خلوة الشيخ خلف الله	٧٠	٩٦	١١٤	١٠٨	١١٤	٨٧	١٠٧	٩٣	٩٣	٨٨٢
٥	المجموع	١٧١	١٢٨	١٣٩	١٣٨	١٥١	١٢٧	١٤٠	١٢١	٩٣	١٢٠٨

المصدر: كمال الدين عباس، مفتش تعليم بربر، وأحمد محمد إبراهيم، مفتش التعليم الأهلي، عطبرة، المديرية الشمالية ٨٥/١٥/١، ونيوبولد مفتش التعليم بالمديرية الشمالية، المديرية الشمالية ٨٠/١٤/١

والبيانات الواردة في الجدول أعلاه مستخرجة من تقارير مفتشي التعليم الأهلي بالمديرية الشمالية، تبين أن كل من خلوتي الشيخ خلف الله و التراجمة قد حظيتا بزيارات منتظمة من مفتشي مصلحة المعارف ومفتش التعليم بالمديرية الشمالية وهو أمر لم يتأت لبقية خلاوي مدينة شندى بما في ذلك خلوة مويس أول خلوة نظامية في المنطقة، وقد بدا ذلك واضحاً من خلال عدم وجود صدى لنشاط تلك الخلاوي في تقارير هؤلاء المفتشين . هذا التجاهل من قبل مفتشي مصلحة المعارف لهذه الخلاوي يشير ربما إلى أنها لم تعد تعامل كخلاوي نظامية تتبع لمصلحة المعارف، والظن عندي أنها ربما عجزت عن الاستمرار في التقيد بمعايير مصلحة المعارف التي لم توجه مفتشيها لزيارتها بعد العام ١٩٢٦م.

أما خلوتا الشيخ خلف الله والتراجمة فإن توالي زيارات مفتشي مصلحة المعارف لهما يشير وبصورة واضحة إلى اهتمام المصلحة بهاتين الخلوتين والى التزامهما الصارم بمعاييرها الأمر الذي يتيح لنا تصنيف هاتين الخلوتين كخلاوي ممتازة خاصة خلوة الشيخ خلف الله التي كانت في الواقع عبارة عن مدرسة صغرى يدرس فيها الصبيان الحساب والإملاء وقراءة سور القرآن الكريم وحفظها وتستخدم فيها الوسائل التعليمية الحديثة مثل السبورة والطباشير وألواح الإردواز وأقلامها[٢٥] أما انقطاع مفتشي مصلحة المعارف عن زيارة هاتين الخلوتين اعتباراً من العام ١٩٣٩ فربما يعود إلى تغير سياسة الحكومة نحو التعليم خاصة الخلاوي النظامية و المدارس الصغرى التي طالتها سهام النقد وصنفت باعتبارها مؤسسات غير صالحة لأن تكون جزءاً من منظومة النظام التعليمي الحديث في ظل الظروف الجديدة التي تغيرت فيها نظرة الحكومة للتعليم[٢٦]، على الرغم من الخدمات الجليلة التي قدمتها واستمرت في تقديمها تلك المؤسسات للتعليم وللمواطنين معاً.

عموماً فقد أوضحت البيانات التي أوردها مفتشو مصلحة المعارف عن الخلاوي في مدينة شندي أن خلوة الشيخ خلف الله قد احتلت مكانة مرموقة بين رصيفاتها في المدينة جعلت منها الخلوة الأكبر من حيث الكثافة العددية ولعل السبب في ذلك يعود كما ذكرنا إلى المستوى التعليمي الجيد الذي ظلت الخلوة تقدمة لمنسوبيها، والخبرة الممتازة التي تمتع بها الشيخ خلف الله الذي يبدو أن تجربته السابقة كمدرس بالمدرسة الأولية لعدة سنوات قد أفادته في إدارة الخلوة التي كانت في منهجها الإداري والعملي أقرب ما تكون للمدرسة الصغرى، ويبدو أن الشيخ خلف الله كان يطمح في تحويل خلوته إلى مدرسة نظامية أولية أو مدرسة نصفية فلجأ في العام ١٩٤٣ لمؤتمر الخريجين العام للمساعدة والمساهمة في تحقيق هذا الحلم الذي ربما راوده كثيراً.[٢٧] وقد استمرت الخلوة تؤدي عملها وكأنها مدرسة صغرى تستوعب أعداداً مقدرة من أبناء مدينة شندي.

دور خلوة الشيخ خلف الله في نشر التعليم بمدينة شندي:

على الرغم من ظهور مؤسسات التعليم النظامي الحديث في مدينة شندي منذ العام ١٩١٢م[٢٨]، إلا أن الخلاوي النظامية ومنذ ظهورها في المدينة ظلت ولوقت طويل تشكل العمود الفقري للتعليم نتيجة لقلة أعداد المؤسسات التعليمية الحديثة واقتصارها فقط على مدرسة أولية واحدة للبنين في مدينة شندي وذلك بسبب البطء الذي لازم انتشار تلك المؤسسات في الريف والقرى الصغيرة، وتراكم المشاكل التي أعاقت تطور هذا النظام وانتشاره، فأصبحت المدن الصغيرة والقرى بيئة مثالية وصالحة لتمركز ونمو الخلاوي القرآنية والنظامية فيها حتى مطلع النصف الثاني من القرن العشرين[٢٩]، مما يدل على أن النظام التعليمي الحديث لم يقض تماماً على نظام الخلاوي الذي ظل قائماً ومحتفظاً بحيويته ولم يتداع أمام تطور وانتشار النظام التعليمي الحديث، بل صار صنواً له من خلال مشاركته في نشر وتعليم مبادئ القراءة والكتابة، وإعداد اليافعين للقبول بالمدارس الأولية[٣٠] حيث كان معظم الصبيان الذين يلتحقون بالمدارس يقضون فترة انتظار في الخلاوي، وهذا يعني بالضرورة أن المدارس الأولية التابعة لمصلحة المعارف كانت تقبل في سنتها الأولى طلاباً تم إعدادهم في الخلاوي النظامية أو القرآنية.

هذه الصورة شبة القاتمة للتعليم النظامي الحديث في مدينة شندي ساهمت في تشكيل واقع تعليمي تعاطى معه المجتمع بشيء من القلق على مستقبل الأجيال القادمة من أبناء المدينة التي لم يكن بها حتى عام ١٩٤٨سوى مدرسة أولية واحدة للبنين ومدرسة صغرى هي مدرسة أبو الدهب وقد كانت هاتان المدرستان تستوعبان أعداداً قليلة من الصبيان في سن التعليم بالمدينة أما البقية فلم يكن أمامها من سبيل سوى خلوة الشيخ خلف الله والتي أصبحت تمثل مع نظيراتها السبيل الوحيد للذين لم يتمكنوا من اجتياز الطريق المؤدي للمدرسة الأولية أو الذين فاتهم سن التعليم وأصبح التحاقهم بالمدرسة الأولية حلماً بعيد المنال، حيث كانت المدرسة الأولية تستوعب فقط أربعين تلميذاً يمثلون نسبة عشرة بالمائة من مجموع التلاميذ المتقدمين للالتحاق بها

سنوياً، وتقذف بالبقية وهي نسبة تسعين بالمائة إلى المجهول، وهو أمر يدل على أن التعليم الأولي في منطقة شندي لم يكن متاحاً للسواد الأعظم ممن هم في سن التعليم في ذلك الوقت، وعلى الدور الخطير الذي لعبته خلوة الشيخ خلف الله في هذا الجانب.

النسبة الكبيرة هذه من الذين لم يجدوا لهم موطئ قدم في المدرسة الأولية أو في المدارس الصغرى التي بدأت تظهر في مدينة شندي في نهاية العام ١٩٢٦م اتجهت أعداد كبيرة منها نحو خلوة الشيخ خلف الله التي نجحت في استيعاب أعداد مقدرة منها تكاد تكون مساوية لأعداد الملتحقين بالمدرسة الأولية والمدارس الصغرى في المدينة، وإذا أجرينا مقارنة بسيطة بين أعداد المنتسبين إلى المدارس النظامية والمنتسبين إلى خلوة الشيخ خلف الله في هذه الفترة استناداً على البيانات الواردة في الجدول رقم (٢)، فإننا وبلا ريب سنجد أن أعداد المنتسبين لخلوة الشيخ خلف الله يمثلون نسبة تزيد عن خمس وعشرين بالمائة (٢٥٪) من جملة عدد الطلاب المقيدين بالمدرستين الأولية والصغرى بالمدينة. وفي معظم الأحوال فقد كانت أعداد المقيدين بخلوة الشيخ خلف الله تساوى أكثر من نسبة ستين في المائة (٦٠٪) من أعداد الطلاب المقيدين بمدرسة شندي الأولية حتى عام ١٩٣٩م وهذه النسبة المقدرة تبين أن الخلوة لعبت دوراً كبيراً في المساهمة في تخفيف العبء الواقع على المدارس النظامية بالمدينة وبالتالي المساهمة بقدر أكبر في نشر التعليم فيها.

كانت خلوة الشيخ خلف الله في معظم سنوات طورها الأول وفي الفترة الممتدة من العام ١٩٢٥ وحتى العام ١٩٤٩، تستوعب مجموعات من اليافعين الذين لم يصلوا بعد لسن التعليم المدرسي، ومجموعات من الفتيان الذين تجاوزت أعمارهم سن التعليم المدرسي، لكن بعد التوسع في التعليم النظامي بمدينة شندي في الفترة بين العامين ١٩٤٩و١٩٥٥ والتي نجم عنه ظهور مؤسسات تعليمية أُخرى في المدينة مثل مدرسة شندي الجنوبية في عام ١٩٤٩ و معهد شندي العلمي في عام ١٩٥١م، و بالتالي ازدياد فرص الالتحاق بمؤسسات التعليم النظامي بالنسبة لأبناء المدينة في مجال التعليم الأولي للبنين، وارتباط الوظيفة الحكومية بالتعليم النظامي لدى عامة الناس، تراجع دور

خلوة الشيخ خلف الله في طورها الثاني الذي تزامن مع هذه التطورات، لمصلحة التعليم قبل المدرسي و لم تعد الخلوة توفر خدماتها التعليمية إلا لمن هم دون سن التعليم المدرسي ولطلاب المدارس الأولية فقط في الإجازات الصيفية إلى أن توقفت الخلوة عن العمل تماماً في العام ١٩٥٤ نتيجة لكبر سن الشيخ خلف الله والتحاق مساعديه الأستاذ الطيب محمد جاد الرب والأستاذ بركات محمد على بركات بمصلحة المعارف .

الخاتمة:

على الرغم من أن عمر هذه الخلوة لم يتجاوز الثلاثين عاماً، إلا أنها ظلت خلال هذه الفترة تحمل هماً وطنياً كبيراً ورسالة قدمت من خلالها خدمات جليلة لمدينة شندي ومجتمعها، ساهمت و بقدر كبير في رفعته و ظهرت آثارها في تطوره وازدهاره ورسخت في نفوس قادته أهمية العلم وفضله. ولم تكن مسيرة الخلوة خلال هذه الفترة بمنأى عن العقبات والتحديات التي وقفت في طريقها مثل تحويل مقرها إلى مسجد شندي الكبير الذي أفقدها الخصوصية التي كانت تتمتع بها ونزع عنها سمة الخلوة النظامية، وتخلي مصلحة المعارف عنها وعن مثيلاتها في نهاية العقد الرابع من القرن العشرين، وقد تمكنت الخلوة من تجاوز تلك العقبات بفضل قوة شخصية الشيخ خلف الله وإصراره وإيمانه العميق برسالته، وفي الختام يمكننا القول أن خلوة الشخ خلف الله لم تكن فقط مجرد مؤسسة تعليمية تقدم خدماتها لليافعين كما جرت العادة، ولكنها كانت أيضاً عبارة عن مشروع مجتمع متبصر تبنى فكراً متقدماً لإحداث نهضة اجتماعية وعلمية شاملة في المدينة، كانت هذه الخلوة مرتكزاً لها.

النتائج:

انتهت الدراسة إلى جملة من النتائج كان أهمها:

أولاً: يعتبر الشيخ خلف الله من رواد التعليم الأهلي الحديث في مدينة شندي

ثانياً: كانت الخلوة تمثل مساراً ثانياً للتعليم النظامي في مدينة شندي للذين لم تستوعبهم المدرسة الأولية أو الذين تجاوزت أعمارهم السن المحددة للالتحاق بالتعليم الأولي.

ثالثاً: أتاحت الخلوة قدراً من التعليم قبل المدرسي للذين كانت تقل أعمارهم عن السن المحددة للالتحاق بالتعليم الأولي.

رابعاً: كانت الخلوة تمثل أكبر مؤسسة تعليمية نظامية بمدينة شندي من حيث أعداد المنتسبين إليها بعد المدرسة الأولية، كما كانت الأكبر بين مثيلاتها.

خامساً: نجحت الخلوة وإلى حد كبير في ملء قدر كبير من الفراغ التعليمي في المدينة والذي تسببت فيه ندرة المؤسسات التعليمية فيها.

سادساً: ثقة المجتمع في الشيخ خلف الله أتاحت لخلوته أن تحظي بأكبر عدد من الصبيان في المدينة.

سابعاً: لم تستمر الخلوة في عملها أكثر من ثلاثين عاماً وارتبط نشاطها بحياة الشيخ خلف الله.

الهوامش :

١- هارولد مكمايكل، السودان، ترجمة محمود صالح عثمان صالح. ط١؛ الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني، ٢٠٠٦م، ص ١٦٣

٢- محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث ١٨٢٠- ١٩٥٥م. ط٢؛ الخرطوم: مركز عب الكريم ميرغني، ١٩٩٢م، ص ٣٨٤

٣ - محمد عمر بشير، تطور التعليم في السودان ١٨٩٨- ١٩٥٦م، ترجمة هنري رياض وآخرين، ط١؛ بيروت: دار الجيل، ١٩٦٨، . ص١٢٦

٤- نفس المرجع، ص١٢٦

٥- جعفر حامد البشير، مملكة الجعليين الكبرى. ط٢؛ الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص ١٠٩

٦- مصطفى خلف الله احمد ،نبذة عن خلوة الشيخ خلف الله احمد بشندي، مذكرة من صفحتين غير منشورة و بدون تاريخ، ام درمان ،ص ١

٧- نفس المصدر، ص ١

٨- دار الوثائق القومية بالخرطوم، ملفات المديرية الشمالية، تقرير تفتيش خلاوي المديرية الشمالية ١٩٣٨، المديرية الشمالية/١/١٤/٨٠

٩- مصطفى خلف الله احمد، مصدر سابق، ص ١

١٠- دار الوثائق القومية بالخرطوم، ملفات المديرية الشمالية، تقرير تفتيش خلاوي المديرية الشمالية ١٩٣٨، المديرية الشمالية/١/١٤/٨٠

١١- نفس المصدر

١٢- مصطفى خلف الله احمد، مصدر سابق، ص ١

١٣- مقابلة مع الشيخ عبد الرحيم إمام المسجد الكبير الذي تولى إمامة المصلين بعد وفاة الشيخ خلف الله بمسجد شندي الكبير، بالمسجد في ٢١ فبراير ٢٠١٣

١٤- دار الوثائق القومية الخرطوم، ملفات المديرية الشمالية، المديرية الشمالية ١/١٥/٨٥

١٥- مصطفى خلف اللّٰه احمد ، مصدر سابق، ص ٢

١٦- دار الوثائق القومية بالخرطوم،ملفات المديرية الشمالية،تقرير تفتيش خلاوى المديرية الشمالية ١٩٣٨،المديرية الشمالية/١/١٤/٨٠

١٧- مصطفى خلف اللّٰه أحمد،مصدر سابق، ص ٢

١٨- دار الوثائق القومية الخرطوم ملفات وزارة التربية والتعليم ،تربية وتعليم ٢/٥/٢٤/٩٧ ص ٦٠٢

١٩- مقابلة مع الشيخ بركات مساعد الشيخ خلف اللّٰه وصهره في منزله بشندي في ٣/١٠/٢٠١٠

٢٠- محمد عمر بشير، مرجع سابق، ص ١٥٩

٢١- دار الوثائق القومية بالخرطوم،ملفات المديرية الشمالية،تقرير تفتيش خلاوي المديرية الشمالية ١٩٣٨،المديرية الشمالية/١/١٤/٨٠

٢٢- محمد عمر بشير، مرجع سابق، ص ١٢٦

٢٣- دار الوثائق القومية بالخرطوم،ملفات المديرية الشمالية،تقرير تفتيش خلاوي المديرية الشمالية ١٩٣٨،المديرية الشمالية/١/١٤/٨٠

٢٤- نفس المصدر

٢٥- دار الوثائق القومية الخرطوم، ملفات وزارة التربية والتعليم، تربية وتعليم ٢/٥/٢٤/٩٧ ص ٦٠٢

٢٦- زكي البحيري، السودان تحت الحكم الإنجليزي المصري. ط١؛ القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٩م، ص ٣٨٤

٢٧- المعتصم أحمد الحاج، محاضر مؤتمر الخريجين ١٩٣٩م- ١٩٤٧م.ط١؛ أم درمان: شركة مطابع السودان للعملة، ٢٠٠٩م، ص ٣٢٣

٢٨- جعفر حامد البشير، مرجع سابق، ص ١٠٩

٢٩- محمد عمر بشير، مرجع سابق،ص ١٠٦

٣٠- دار الوثائق القومية الخرطوم، ملفات وزارة التربية والتعليم، تربية وتعليم ٩٧/٢٤/٥/٢ ص ٦٠

المصادر والمراجع:

أولا المصادر:-

أ-المصادر غير منشورة والمحفوظة بدار الوثائق القومية بالخرطوم:

١- ملفات وزارة التربية والتعليم

تربية وتعليم ٩٧/٢٤/٥/٢

٢ - ملفات المديرية الشمالية.

المديرية الشمالية/٨٠/١٤/١

المديرية الشمالية ٨٥/١٥/١

ب- المصادر غير المنشورة؛-

١- مصطفى خلف الله احمد ،نبذة عن خلوة الشيخ خلف الله احمد بشندي، مذكرة من صفحتين غير منشورة و بدون تاريخ، أم درمان

ج- المصادر المنشورة:-

١- المعتصم أحمد الحاج، محاضر مؤتمر الخريجين ١٩٣٩م- ١٩٤٧م.ط١؛ أم درمان:شركة مطابع السودان للعملة، ٢٠٠٩م.

ثانيا المراجع:-

أ- المراجع باللغة العربية:-

١- محمد سعيد القدال، تاريخ السودان الحديث ١٨٢٠- ١٩٥٥م. ط٢؛ الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني، ١٩٩٢م.

٢- جعفر حامد البشير، مملكة الجعليين الكبرى. ط٢؛ الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.

٣- زكي البحيري، السودان تحت الحكم الإنجليزي المصري. ط١؛ القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٩م.

ب- المراجع المعربة:-

١- محمد عمر بشير، تطور التعليم في السودان ١٨٩٨- ١٩٥٦م، ترجمة هنري رياض وآخرون، ط١؛ بيروت: دار الجيل، ١٩٦٨م.

٢- هارولد مكمايكل، السودان، ترجمة محمود صالح عثمان صالح. ط١؛ الخرطوم: مركز عبد الكريم ميرغني، ٢٠٠٦م.

ثالثا المقابلات الشخصية:-

١- مقابلة مع مع الشيخ بركات مساعد الشيخ خلف الله وصهره في منزلة بشندي في ٢٠١٠/١٠/٣م.

٢- مقابلة مع الشيخ عبد الرحيم إمام المسجد الكبير الذي تولى إمامة المصلين بعد وفاة الشيخ خلف الله بمسجد شندي الكبير، بالمسجد في ٢١ فبراير ٢٠١٣م.